

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ  
وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . وَأَعْتَصِمُوا  
بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

« صدق الله العظيم »

[ سورة آل عمران الآيتان : ١٠٢ و ١٠٣ ]

في حديثنا السابق تكلمنا عن خروج آدم من الجنة وعودته إليها إذا عمل لها عملها واستحقها .

وهذه المرة نتكلم عن الأمة ، أمة الإسلام أمة الله عندما يكون الإنسان عضواً فإن صلة الإنسان بخالقه لا تكون في أكمل صورها إلا عن طريق الأمة ، أي في جماعة المسلمين المعتصمة بحبل الله ، وإذا أنت قرأت القرآن ملياً لاحظت أنه حيثما ورد ذكر الإنسان المفرد كان ذلك في معرض اللوم وبيان أوجه النقص في خلق الإنسان وما يستتبعه ذلك من التحذير والإنذار .

وحيثما ورد ذكر الإنسان في صورة الجماعة أو الأمة كان ذلك في معرض التوجيه والهداية والرضا وبيان سبيل الرشاد .

ولله في ذلك حكمة وحكم اختص بها دينه الذي أرسل به رسله واحداً بعد واحد ، ثم ختم بسيد المرسلين حامل الرسالة الصافية الكاملة ، ومبلغها إلى

الناس في أكمل صورة يمكن أن يبلغها بشر ، لأن الإسلام ذروة رسالات الله للبشر . ورسول الإسلام ذروة الكمال الإنساني : صفاء وطهارة وإخلاصاً وبلاغاً وذكاء وقدرة على القيام بالمسئوليات ، ولهذا فإن دين الله واحد كما أنه هو جل جلاله واحد . أما الأديان بالجمع فمن صنع الناس .

وإليك البراهين . فاقراً هذه الآيات التي يجيء فيها ذكر الإنسان المفرد .

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾ .

[ النساء / ٤ / ٢٨ ] .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [ يونس / ١٠ / ١٢ ] .

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظُلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

[ إبراهيم / ١٤ / ٣٤ ] .

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ [ النحل / ١٦ / ٤ ] .

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾

[ الإسراء / ١٧ / ١١ ] .

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ، فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [ الإسراء / ١٧ / ٦٧ ] .

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ [ الإسراء / ١٧ / ٨٣ ] .

﴿ قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَنُورًا ﴾ [ الإسراء / ١٧ / ١٠٠ ] .

﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ، وكان الإنسان أكثر شئاً جدلاً ﴾ [ الكهف / ١٨ / ٥٤ .

﴿ ويقول الإنسان أءذا ماتت لسوف أخرج حياً . أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾ [ مريم / ١٩ / ٦٦ - ٦٧ .

﴿ خلق الإنسان من عجلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فلا تستعجلون ﴾

[ الأنبياء / ٢١ / ٣٧ ] .

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً .

[ الأحزاب / ٣٣ / ٧٢ ] .

﴿ وإذا مس الإنسان ضرٌّ دعا ربه مُنيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار . أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ [ الزمر / ٣٩ - ٨ / ٩ ] .

وأظن أن هذا يكفي فالغالبية العظمى من الآيات التي تخاطب الإنسان المفرد على هذه الشاكلة .

أما غالبية الآيات التي يرد فيها الكلام عن الإنسان أو إليه بصيغة الجمع « أناس » و « ناس » فإن الكلام لا يصل إلى هذا العنف ، وإنما يصلنا الحديث في مثل قوله تعالى في [ سورة الزمر / ٣٩ / ٦ ] ﴿ حَتَّىٰ تَخْرُجُوا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ تَمَّ جَعَلٍ مِنْهَا زَوْجَهَا .. ﴾ وفي مجال الحديث عن نعمة الله قوله ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ [ البقرة / ٢ / ٢١٣ ] وذلت في مجال الرسل والرسالات قوله

جل وعلا في حديث لوط : ﴿ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا  
أخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرِيْبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف / ٧ / ٨٢] .

أما في حديث الله سبحانه إلى الناس بالجمع ، فهو في الغالب حديث  
نصح وتوجيه وأمر كريم ورحمة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ  
مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ [النساء / ٤ / ١٧٠] و ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ  
جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ [النساء / ٤ / ١٧٤] .

أما إذا كان الحديث موجهًا للمؤمنين في صيغة « يا أيها الذين آمنوا » فهنا  
تجد الخير كله والحذب كله ورحمة الله كلها .

بماذا نخرج من هذا كله ؟

لقد سبق أن قلت : إن القرآن كلام الله لا يمكن أن يكون شيء فيه إلا  
بحساب . فالله سبحانه عندما يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ  
الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَآشَاءَ رَبِّكَ ﴾ [الانفطار ٨٢ / ٦ ،  
٧ ، ٨] موجهًا الحديث إلى الإنسان لائماً ، قد صاغ الآية في هذه الصورة لأنها  
أنسب ما تكون للمعنى المراد ، وهي تختلف تماماً عن الصورة المناسبة لقوله تعالى  
مخاطباً الإنسان بصيغة الجمع ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ  
شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج ٢٢ / ١) فهنا موقف نصح وتوجيه فيه حذب إلهي  
عظيم .

وذلك كله راجع فيما أرى وهو رأى أرجو ألا يؤخذ إلا في هذه الحدود - هو  
أن الله سبحانه أراد أن تكون آخر رسالاته إلى البشر موجهة في صميمها إلى  
البشرية كلها وإلى أمة المؤمنين في مجموعها ، لأن الأمة هي مستودع الخير كله  
وهي العاصمة للإنسان من الزلل ، وهى سبيل الخير - أما الإنسان المفرد فإنه  
ضعيف متخوف أنانى بل بدائى ، ومن ثم فإن الخير الذى ينتظر منه قليل ،

وهنا تتضح لنا مرادات الله العليا من وراء رسالة الإسلام ، فإن دارسى التاريخ يعرفون أن الأمة أو الجماعة هي مهد الحضارة ، أما الإنسان المفرد الهائم على وجهه في البرارى فلا يقيم حضارة ، ولا يخطط خطوة تقدم واحدة ، وحيث إن الإسلام في ذاته حضارة لا قاعدة حضارية كما يقولون - فهو دين الجماعة ودين الأمة ، ومحمد رسول الإسلام كان يكفيه أن يبلغ رسالته ثم ينزوى وينفرد بنفسه أو مع طائفة من الذين اتبعوه ويعبد الله ، وهكذا فعل كل الأنبياء والرسل الذين سبقوه ، أما هو فكان همه الأول هو إنشاء الجماعة الإسلامية أو الأمة الإسلامية ، والأمة هي التي تطبق الدين وتحفظه وترعاه وهي التي تنشره بين الناس . والشعور بأن الأمة أو جماعة المؤمنين هي القاعدة هو الذى حفز رسول الله ﷺ على دخول دار الأرقم والدعوة فيها ، فهنا في سكون بيت مقفل يكون اتصال الجماعة برسولها على أتمه ، وهنا يرى المؤمنون رسولهم وقدوتهم ، وكيف يعيش وكيف يتصرف فينشئوا على مثاله ، ورسول الله دخل دار الأرقم ودعا فيها في أوائل السنة الثالثة للبعثة ، ولم يكن على المسلمين خوف إذا ذاك ، فإن كفار مكة الذين نصبوا أنفسهم لعداوة الإسلام لم يكونوا قد تنبهوا بعد إلى خطورة الدعوة التي يدعو بها رسول الله ، وعندما انتهت فترة دار الأرقم قرابة نهاية السنة الخامسة للبعثة على أثر إسلام عمر وشعور المسلمين بالقوة أى بقوة الجماعة إلى جانب قوة الإيمان خرجت الأمة من معتصمها ، وقد صنعت على يد الله ورسوله أقوى من الحديد وعندما اتجهت جماعة المسلمين الصغيرة إلى مجلس القوم عند الكعبة يتقدمها رسول صلوات الله عليه وأبو بكر وعمر وحمزة ، وأقامت صلاتها تحت نظر المكيين كان المصير قد تحدد : قامت الأمة حاملة الدين ، ولن يثبت لها أحد ، وعندما هاجر الرسول إلى المدينة وبينما كان يبنى المسجد لكى يكون دار عبادة للأمة ومجمعاً لها ، بادر إلى إنشاء الأمة إنشاءً سياسياً يفهمه الناس ، وهذه الأمة لا تقوم بأمر من محمد بل بالتشاور مع أصحابه ، لأن النص المكتوب لا بد أن

- يصدر من القلوب حتى تتبعه القلوب ، وهنا تقرأ سطوراً مثل :
- هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين في قريش ويشرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .
  - إنهم أمة واحدة من دون الناس .
  - وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً ( مثقلاً بالدين أو أسيراً ) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أر عقل .
  - لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .
  - وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين .
  - إن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .
  - ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن .
  - وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أديانهم .
  - وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض من دون الناس .
  - وأنه من اتبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

إلى آخر مواد هذا الدستور الفريد الذي صنعه الله على يد رسوله وأمه .  
 حقاً إن آيات القرآن الكريم ستتزل بكل ماتضمنه هذه الوثيقة ، ولكن القرآن ينزل نجوماً على نحو قدرة الله ونحن الآن في حاجة إلى إعلان قيام الأمة ، لأن شجرة الإيمان تنمو على أصح نمو وأكمل في ظلال أمته ، والمؤمن يريد أن يشعر أن أمته لا قرابته ولا عصبيته ولا ثروته هي الحصن الذي يؤويه ، هنا في ذلك الحصن ينمو أفراد الأمة بروح الأمة والجماعة أى بروح الحضارة ، هنا وداخل

حصن الإيمان سيعيش الناس جماعة ، واحة في الجماعة الفاضلة تهذب الأخلاق وتعين الإنسان على التخلق بأخلاق الجماعة ، وهي شيء آخر غير أخلاق الفرد .

من حكمة الله في مخاطبة الإنسان المفرد عن النحو الذي رأيناه ، لأنه إيمانياً وحضارياً لا يعني شيئاً ، وقبل أن أخطو خطوة أخرى من تحليل الآية التي جعلتها محوراً لهذا الحديث أذكرك بحقيقة غابت عن السلف ولكنها على ضوء انظار التاريخي الراهن لا أظنها تغيب عن السلف .

من البديهي أن الإنسان إذا صلى وحده هادئاً آمناً في سر بيته تكون صلاته أصنى وأخلص ، فلا أحد يشغله ولا صوت يقطع عليه قنوته .

ولكن الله سبحانه فضل على صلاة الفرد صلاة الجماعة مرات بعد مرات ، مع أن الإنسان إذا قام يصلي في المسجد أو في جماعة الناس لا يسلم من التشاغل بأمر من حوله مهما بذل من جهد في الانعزال بنفسه عن الناس ، وكلنا نصلى أفراداً ونصلى جماعات ، وكلنا يعرف هذه الحقيقة ، ولكن الله أعلم بشئون عباده فهو يريدنا أن نصلى جماعة وإن انتقصت الجماعة في خلاص النفس واطمئنان الفؤاد

لأن الجماعة والامة هي حصن الإسلام ومعقل الإيمان ، ألم يقل رسول الله ﷺ أحاديث مجمع عليها في معنى أن صبر أحدكم على مجالس المسلمين ساعة خير من صلاة أو عبادة كذا سنة ؟ فهذه هي الحقيقة الكبرى التي تتمثل فيها قوة الإسلام ، وبدون الأمة وروح الأمة نقرأ تاريخ الإسلام وكأننا نقرأ تاريخ أمة أخرى .

فإذا كنت معي في أن الأمة والجماعة هي سر قوة الإسلام وفضيلته الكبرى ، فلنعد إلى المصحف ، ونقرأ معاً بقية هذه الآيات الكريمة التي اخترتها محوراً

لحديث اليوم فنقرأ في سورة آل عمران : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذَا كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبِرْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [ آل عمران ١٠٣ / ٣ ] .

والآن خذ هذه الآيات في ذهنك وتأمل حالة عالم الإسلام من حولك وقل لي

أترانا مسلمين ؟ أو بتعبير أخف : أترانا على الإسلام القويم ؟

هل نحن معتصمون بحبل الله جميعاً غير متفرقين ؟

وهل كنا كذلك بالأمس أو أول أمس ، وهكذا راجعين إلى أيام الراشدين ؟

لا والله وما عرفنا غير الفرقة والخلاف ، والله سبحانه أنقذنا من حفرة النار فعدنا إلى التردى فيها ، يحيل إليك أحياناً أن الكثيرين جداً منا يقرءون القرآن ليعملوا بفضده ، ولقد تفتنتت إلى فضائل الاتحاد أمم هي أبعد ما تكون عن الإسلام ونجحت . فإن الروس فوق الثلاثمائة مليون والهنود فوق الستمائة والصين فوق الألف مليون . والأمريكيون فوق الثلاثمائة ، وكل واحدة من هذه أمة متهاسكة معتصمة بحبال أوطانها وبالوحدة تواجه الدنيا وتتخطى العقبات إلا المسلمين إلا العرب !

لم يعرفوا في تاريخهم أو أمسهم إلا الخلاف والتفرق والحروب ، والمأساة مستمرة إلى يومنا هذا . وقد أمرنا الله ألا نركن إلى غير أهل ديننا ، وانظر إلى الوفود العربية التي تحج إلى واشنطن وموسكو ولندن وباريس تلمس الحلف والمعونة والتأييد ، وقل لي كم وفداً عربياً إسلامياً يقبلون على العواصم العربية ، لحل الخلافات ، وأي البلاد العربية صديق من أو حليف من ؟ لا شيء غير الفرقة والخلاف ، لا شيء غير العداوة والبغضاء ، ولقد فتح المسلمون بلاد فارس ولكنهم لم يتبعوا آل كسرى بالقتل والتشريد ، ولكن الأمويين يتولسون الخلافة ،

فلا يكون لهم هم إلا إذلال العرب ومعاوية بن أبي سفيان - على رجاحة عقله -  
يأمر بسب علي بن أبي طالب وآله على منابر الإسلام ، وهو هنا ينسى أن رسول  
الله ﷺ بعد فتح مكة نهى الناس عن سب أبي جهل إكراماً لابنه عكرمة ،  
وقال :

« لا تسبوا الأموات فإن السب لا يصل إلى الميت ، ولكنه يؤذى الأحياء » .  
وبنو العباس يتولون الخلافة بعد الأمويين فيجعلونها بحار دم ، ويقتفون من  
الجرائم ما يأنف منه أبعد الجاهلين عن الإسلام . وهل يعقل أن يكون الإنسان  
مسلياً ثم يقترف جناية بشعة مثل مذبحه أبي فطرس حيث ذبح داود بن علي عم  
الخليفة أبي العباس السفاح فوق المائة أموى فيهم الصبيان والصبيات ، ثم مد  
السطح أى مفرشاً من الجلد وجلس وأمر بالطعام وأكل هو وأصحابه على جث  
الموتى ! .

ثم نشكو من أعداء الإسلام ! .  
ثم يتحالى بعضنا ويؤلف كتباً يرد بها على ما يسميه بمكايد المستشرقين !  
وهل للإسلام أعداء إلا أهله ؟

إننى هنا لا أسمى ، ولكن أدر بصرك فى عالم الإسلام من حولك ، وقل لى  
ماذا ترى هل نحن - فى أى بلد إسلامى - معتصمون بحبل الله أم بحبل  
الشیطان ؟ وهل أعجب من أن هناك عرباً مسلمين اليوم يؤيدون الروس فى  
مذبحة أفغانستان ؟

ثم نتعجب من المأساة الطويلة التى هى تاريخنا وما تتضمنه من مذابح  
المسلمين بعضهم لبعض وخياناتهم بعضهم لبعض ، كأنهم لم يقرءوا القرآن أو  
كأن القرآن أنزل لقوم غيرهم ، إن كل الذى يطلبه إلينا القرآن هو أن نعتصم  
جميعاً بحبل الله ولا نتفرق ومع ذلك فيبدو أن هذا أكثر مما نستطيع .

ثم نستطرد مع الآيات المباركات فنقرأ :

﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [ آل عمران ١٠٤ / ٣ ] .

لقد حيرني موقف فقهائنا من هذه الآيات . إنها هنا فعل أمر واجب النفاذ وهي فيما أتصور قاعدة أساسية من قواعد البناء والتنظيم الأساسى لأمة الإسلام وتفسيرها نجده في السيرة النبوية . لأن القرآن هو الشرع والقانون ، والسنة هي التطبيق والتفسير .

نقرأ في سيرة ابن إسحق برواية ابن هشام بعد تمام بيعة العقبة « وقد قال رسول الله ﷺ : أخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيباً ، ليكونوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ( ١ / ٨٥ ) وبعد انتخاب هؤلاء يقول الرسول : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، وأنا كفيلى على قومى . قالوا : نعم .

ولنلاحظ هنا أن رسول الله ﷺ لم يقم باختيار النقباء بنفسه ، بل طاب إلى الأوس والخزرج أن يختاروا بأنفسهم نقباءهم وبعد أن اختاروهم قال إنه هو يمثل قومه يعنى القرشيين المهاجرين ، أى أنه نقيبهم والمتحدث باسمهم ، ثم يلى ذلك حديث جرى بين الأنصار في أهمية البيعة التى عقدها مع الرسول ومستولياتهم فيها ، وعلى طول تاريخ الإسلام في المدينة أيام الرسول نحس بوجود هذه الهيئة وأثرها . وابن حزم نفسه ، وهو رجل ذو حس تاريخى صادق كلما مر بواحد من النقباء أضاف فى أوصافه أنه عقبى نقيب . أى أنه حضر بيعة العقبة وكان من بين النقباء الذين انتخبوا ، فهى لم تكن هيئة شكلية بل أساسية ، ورسول الله ﷺ يأخذها مأخذ الجد ، والصحيفة التى كتبها الرسول بين مؤسسى أمة الإسلام ، وقد أشرنا إليها إنما هى ثمرة حوار النبى ﷺ مع أصحابه فى هذا المجلس الذى نستطيع أن نسميه مجلس الأمة .

وهذه أيها الإخوة هي الأمة التي تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر . هي جماعة تختارها الأمة اختياراً حراً لتتولى شئونها .

وعلى العادة نجد أن الله سبحانه يشرع . والرسول يطبق ويرسم طريق التنفيذ ونحن ننسى ، ثم تكون الكوارث .

لقد خلق الله أمة الإسلام أمة شورية ، أمة تحكم نفسها بنفسها . أمة تختار أولئك الذين يسيرون أمورها اختياراً حراً . أمة تُحترم فيها قيمة الإنسان وكرامة الإنسان ورأيه ، وإليك سيرة الرسول ﷺ فاقروا فيها كيف كان يعامل أصحابه كيف كان يحترم رأى أصغر واحد منهم ويعطيه حقه ومكانه .

ثم مضى رسول الله ﷺ وجاءت الخلافة بعد رسول الله ، وكانت على أيام الشيخين خلافة شورية ، وأبو بكر وعمر على جلال قدرهما كانا يستشيران ويأخذان برأى الجماعة وقد حدث في أيام أبي بكر أن رجلاً من أهل الردة عاد إلى الأمة ثم ارتد مرة أخرى فغضب أبو بكر ، وفي سورة غضبه أمر بإحراقه حياً . فظل بقية عمره نادماً على الغفلة « وعلى فراش الموت سأل الله أن يغفرها له » .

وأمة الإسلام أمة واحدة : ﴿ **إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون** ﴾ [ الأنبياء ٢١ / ٩٢ ] وفي هذه الآية حكمة بالغة ، لأنها تقول إن هذه الأمة الواحدة هي أمة الله التي تعبده حق عبادته ، فهي أمة الإيذان الواحد لا السلطان الواحد ، فقد تعددت الوحدات السياسية في نطاق أمة الإيذان فلا يتأتى من ذلك أى ضرر ، وقد أقر رسول الله ﷺ ذلك فقد كتب إلى جيفر وعبد ابني الجلندى شيخي عمان : أسلما تسليما « فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين وأنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقررا بالإسلام فإن ملككما زائل » وكتب إلى هودّة بن علي شيخ اليمامة : « سلام على من اتبع الهدى ، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخلف والخافر . فأسلم تسلم ، وأجعل لك ماتحت يديك » لأن وحدة الإسلام

والإيمان هي الأساس ، أما الوضع السياسي في أى ناحية من نواحي أمة الإسلام فهو صورة للحكم لا يشترط فيها الإسلام إلا التراضى والعدل وإقامة الدين ، والناس بعد ذلك أحرار تحت راية الإسلام في أن يقيموا ملكاً أو سلطاناً أو جمهورية أو ما يشاءون ، لأن الإسلام لا يهتم إلا بروحه وصلبه . أما خضوع أمة الإسلام كلها لسلطان سياسى واحد فأمر ابتدئناه ورجعنا به إلى استبداديات ما قبل الإسلام ، وقلنا إنها خلافة لرسول الله ، ولكننا جعلناها ملكاً وقطعنا رقاب الناس ، وانصرف اهتمامنا الأول إلى الخليفة دون الخلافة ، إلى الإنسان صاحب الملك الزائل دون خلافة الرسول ذات الجاه الدائم ، وفي كتب الفقه الإسلامى فصول بعد فصول عمن يستحق الخلافة ، وهذا كله كلام سياسى بعيد عن صلب الإسلام .

وفي القرآن آية نردها دون أن نتدبر معناها ، هي قوله سبحانه في سورة آل عمران : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ . [ ١١٠ / ٣ ] .

ونحن في العادة نستشهد بنصفها الأول مع أنه نصف جملة ، فهو جواب الشرط أما جملة الشرط فقوله تعالى : « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . فإن أنتم فعلتم ذلك كنتم خير أمة أخرجت للناس ولو أن الله سبحانه أراد أن يقول إنكم خير أمة أخرجت للناس لمجرد أنكم مسلمون لقال أنتم خير أمة أخرجت للناس ولكن العبرة هنا في « كنتم » وهي جواب الشرط .

\*\*\*